

ولد اللواء الدكتور ياسين سويد في كفر حمام - قضاء حاصبيا عام 1931، وتنتقل بين مدرسة القرية ومدرسة الروم في راشيا الفخار، ثم إلى الكلية الشرعية في بيروت، ومنها إلى المدرسة الرسمية في صيدا، حيث نال الشهادة الابتدائية، تابع بعدها دراسته في كلية المقاصد للمرحلتين المتوسطة والثانوية. وربما دفعته أوضاع فلسطين أن ينتسب إلى المدرسة الحربية عام 1949، ليتخرج منها ضابطاً. وعلى ما يبدو، فإن الجندية بدأت منذ ذلك الحين تأخذ عنده مساراً موازياً لشغفه بالتاريخ والتاريخ. فألقى محاضرة بعنوان "معارك خالد بن الوليد". تحولت فيما بعد إلى مشروع لرسالة الماجستير. وربما جعله حبه لهذا القائد العربي أو لأبي خالد (جمال عبد الناصر) أن يطلق اسم خالد على نجله الأكبر.

لقد انجذب سويد إلى الثورة المصرية وإلى تأميم قناة السويس عام 1956، ليس كعسكري، بل كمواطن عربي هزته الناصرية، وهذا ما صقل شخصيته، ليتكون عنده تصور فكري لأوضاع لبنان والعالم العربي. بالنسبة إلى لبنان، أدرك أن التنشئة الوطنية مسألة حاسمة في التلاحم الوطني، خاصة بعد أن تززع التعايش الطوائفي بفعل الثورة عام 1958، فأسهم في وضع كتاب في التنشئة الوطنية لتدريسه في المعاهد العسكرية، لأن التنشئة الوطنية، برأيه، حصانة للعسكر وللمتهم الوطنية. منذ ذلك الحين، يلاحظ المرء بوضوح، التلاحم بين شخصية سويد كعسكري، وشخصيته كباحث ومؤرخ، إذ كان يراكم ثقافته وخبراته العسكرية عبر مشاركته في دورات عسكرية في الخارج، ويوسع في الوقت عينه معارفه العلمية، وبخاصة ما يتعلق منها بالتاريخ. فتدرج بجدارة في مواقع عسكرية عديدة، كان أخطرها في جهاز أمن مطار بيروت عشية الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982. وفي الوقت نفسه، نال الإجازة في الحقوق من الجامعة اللبنانية عام 1964، وأخرى في التاريخ عام 1969، والماجستير في التاريخ عن رسالته خالد بن الوليد، والدكتوراه من جامعة ليون بفرنسا عن المقاطعات اللبنانية في عهد الأمير فخر الدين المعني، وأتبعها بدكتوراه دولة من جامعة السوربون عن "المقاطعات اللبنانية في العهد الشهابي". فأصبحت الرتبة العسكرية (عميد ثم لواء)، والدكتوراه في التاريخ مكونين أساسيين لشخصية سويد.

كלבاني وعربي، شددت القضية الفلسطينية ياسين سويد بكل خصوصياتها وأبعادها، ولأنه يعتبر فهم ماهية الصهيونية وأهدافها، وسيلة ضرورية لمحاربة الكيان المغتصب، وضع سويد مع نخبة من المؤرخين والمختصين كتاب "القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني". وما أن عين في لجنة الهدنة اللبنانية الإسرائيلية عام 1978، حتى وجد نفسه في صدام مع العدو الإسرائيلي وأطماعه بأراضي لبنان ومياهه، حيث كانت إسرائيل قد أقامت شريطها الأمني في الجنوب. وفي إحدى المرتين اليتيمين اللتين شارك فيهما في اجتماع لجنة الهدنة، ثار سويد في وجه الضابط الإسرائيلي المشارك قائلاً له: عليكم أن تنسحبوا من أرضنا، وتحرروا أهلنا في الجنوب من نير احتلالكم. وكان ذلك كافياً لأن يطلب الإسرائيليون استبعاده من اللجنة.

بعد نيّله الدكتوراه، بدأ سويد يشق طريقه بثبات متسلحاً بخبراته وشهاداته: صفته العسكرية، وكونه حقوقياً ومؤرخاً. فمارس التعليم في الجامعة اللبنانية، حتى تقاعده برتبة لواء في الجيش عام 1990، ما أفسح له في المجال الانصراف إلى التأليف والعمل الفكري القائمين على الوطنية اللبنانية والقومية العربية، بعدما استحق رتبة "أستاذ" في الجامعة اللبنانية.

إذا أردنا أيها السيدات والسادة أن نقسم مسيرة ياسين سويد العلمية، نرى أنها مرت بثلاث مراحل: مرحلة الانطلاق، حيث تركزت كتاباته أثناء المرحلة الثانوية على التاريخ العربي وقضية فلسطين. ومنذ دخوله المدرسة الحربية عام 1949، تبدأ المرحلة الثانية وتمتد حتى تقاعده عام 1990، وفيها أثنى مجلة الجندي (الجيش اليوم) بالعديد من المقالات يصعب حصرها. فتتوعد الموضوعات التي طرقتها، أوضاع لبنان والجيش كمؤسسة عسكرية وكحزب وحيد لكل لبنان، والانضباط فيه، والتنشئة الوطنية، ونبذ التعصب العسكري، قاصداً من خلال ذلك تثبيت هوية الجيش ودوره الوطني. وودع ياسين سويد هذه المرحلة بمقال بعنوان: "وداعاً أيها السلاح". ومنذ عام 1990، بدأت المرحلة الثالثة عند سويد التي يسميها "مرحلة التقاعد"، فكانت هذه المرحلة على عكس التسمية مرحلة نتاج علمي خلاق بكل المعايير والتوصيفات، إذ أخذت منحى وطنياً أكثر جرأة على قول الحقيقة والدفاع عن لبنان الوطن، لا مزرعة الطوائف. ويلاحظ، أن أكثر المنتديات الثقافية التي انتسب إليها هي تلك التي كان لها علاقة بتحرير جنوب لبنان من الاحتلال، والتصدي القومي العربي للصهيونية. وما أن ينتهي من مؤتمر حتى ينخرط في آخر في داخل لبنان وخارجه. فكان صوتاً مدوياً في نقد النظام الطائفي اللبناني وما أوصل لبنان إليه، وفي انتقاد التقاعس العربي بالنسبة إلى قضية فلسطين وتحرير الأراضي العربية المحتلة. لقد شغلته إشكالية مركبة، وهي: هوية لبنان والهوية العربية والهوية الإسلامية، فأراد التأكيد أن لا تناقض بينها، فيمكن للمرء أن يكون لبنانياً دون أن يرفض عروبته وإسلامه أو مسيحيته. فكان بموقفه هذا متقدماً ومتجاوزاً للكثيرين من أصحاب الإيديولوجيات الهدامة، وخصوصاً عندما أطلق حركة علمانية سماها "حركة اللاطانيين".

لقد وضع هذا العسكري الصلب والعنيد والمفكر الجليل عشرات المؤلفات الضخمة والهامة، والتي تطرح سؤالاً وجيهاً: هل عرف هذا الرجل طعم الراحة؟ لقد طبق قواعد التأريخ العلمي الرصين، من جمع المادة والوثيقة ووضع المخطط وتحديد الهدف واعتماد المنهج وكأنه في ساحة معركة عليه أن يفوز بها ويحصد نتائج مشرفة. فلا فرق عنده بين معركة لتأريخ موضوعي هادف لتأريخ لبنان، وبين معركته في ساحة الوغى ضد المحتل الإسرائيلي ومن يهدد الوطن. فكلاهما يصبان في هدف واحد، وهو الوصول إلى الحقيقة، أن النظام الطائفي هو أصل البلاء في لبنان، وأن الوجود الصهيوني على أرض لبنان وفلسطين هو مخالف للتطور التاريخي لشعوب المنطقة. من هنا، نرى هذا الاندماج العجيب للعسكرية والتأريخ في شخصية واحدة ينحني الإنسان أمامها بكل تقدير وفخر.

لقد جعله اهتمامه بالتأريخ العسكري العربي يزور مسارح لمعارك تاريخية شهيرة، كاليرموك وميسلون في سورة، وأحد و بدر في السعودية وغيرها لعله يرى فيها أشياء غابت عن أعين المؤرخين، وخلال الأزمات التي كانت تعصف بالوطن وبالعالم العربي والإسلامي كان ياسين سويد يحتكر شاشة التلفزة والإذاعات كخبير إستراتيجي ومؤرخ، فيدلو بدلوه بجرأة من دون أي انحياز أو محاباة، سوى إلى الحق والحقيقة. وبسبب مواقفه الأكاديمية والوطنية الصادقة والمستقلة، فُتح أمامه أثير الإعلام من مختلف الميول. وقد أخصيت له بين عامي 1983 و2010 ما لا يقل عن 115 حلقة ومداخلة

تلفزيونية. وبين عامي 1985 و2010، بلغ عدد المقالات والندوات والحوارات والمقالات التي كتبها ما يقرب من 600، وقد اختصت بلبنان وبنظامه الطائفي وحروب إسرائيل عليه، وأهمية وجود المسيحيين في لبنان والعالم العربي، مطلقاً عليهم مصطلح "ملح الأرض العربية". لقد وجه سويد قلمه اللاذع إلى كل ما يستفحل في العالمين العربي والإسلامي من أمراض وما يواجهانه من تحديات، فكانت قضية فلسطين والصراع أو السلام بين العرب وإسرائيل، والإرهاب مؤخراً، في صلب انتقاداته لما حصل، من دون أن يكتفي بالإشارة إلى تلك الأمراض، بل اقترح العلاجات لها. وحرّام أيها السيدات والسادة أن تبقى هذه الأعمال مقالاً من هنا وآخر من هناك، وأعتقد أنها يجب أن تصنف كلها في موضوعات وتنتشر، والمقصود هنا المقابلات التلفزيونية أيضاً.

وكما وضع كتاباً بعنوان "نحو إستراتيجية جادة لعمل عربي موحد، فهو قد وضع مؤخراً كتيباً بعنوان: إستراتيجية دفاعية مقترحة للبنان"، وقد أكد في إستراتيجيه هذه "قاعدة الشعب والجيش والمقاومة"، إلا أنه أصر على أن لا تكون المقاومة مذهبية أو طائفية، بل أن تكون "مقاومة وطنية جامعة".

وقد استوقفني في هذه العجالة مقالان نقديان لسويد: "قمر سني و قمر شيعي، يتبعهما عيد سني وعيد شيعي"، كتعبير ساخر عن استيائه من اختلاف المسلمين حول توقيت أعيادهم. أما المقال الثاني، فعنوانه "زوجتي: عقيلتي أو قرينتي أو مدامتي، أم صاحبتني"، وخلص فيه إلى أن القرآن الكريم استعمل مصطلح "الصاحبة" وفضلها عن مصطلح الزوجة والصديقة، لأنها الرفيقة الأبدية التي تصاحب زوجها.

لقد أسهم اللواء والمؤرخ ياسين سويد في إثراء المكتبات العربية بأعماله، فبلغت مؤلفاته 22 عنواناً، وهي تتضمن 45 كتاباً، بعضها باللغة الفرنسية التي أجادها. ودارت موضوعات هذه الكتب حول التاريخ الإسلامي والحروب الإسلامية، والتاريخ العربي، وتاريخ لبنان، والسياسات الغربية تجاه العرب، وسياسة إسرائيل العدوانية تجاه لبنان والعرب، وما تتطلبه من إستراتيجية جادة لعمل عربي موحد. وقد صدر له مؤخراً كتاب عن لبنان الشمالي، وهو خلاصة تقرير بالفرنسية وضعه ضابط فرنسي في عهد الانتداب، إلى جانب كتاب عن المؤسسة العسكرية في عهد الانتداب الفرنسي. وما يستوقفني في هذه العجالة هو "موسوعة تاريخ لبنان"، وهي عبارة عن 16 مجلداً صدرت عام 2004. وليسمح لي الجنرال العزيز أن أفشي سراً عن موسوعة أخرى ضخمة من 10 أجزاء ستنتشر قريباً، وهي "من تاريخنا، معارك وقادة".

قد يحتاج المرء إلى ساعات، بل إلى أيام ليوجز سيرة ومسيرة الصديق الحبيب ياسين سويد. لكن المرء يستطيع أن يختصر ذلك بأنه أمام شخصية إنسانية جبارة استثنائية يكون التأريخ فيها هو أوكسجين الحياة لها، ومن دون هذا الأوكسجين، لا حياة لياسين سويد.

عبد الرؤوف سنو